وادعاء الوضعي" الحياد وعدم التحيز"له جذوره الاجتماعية والايديولوجية العميقة، ويعكس الموقف المتناقض لهذه الفلسفة إزاء العلوم المتخصصة: فهي من ناحية مهتمة بتطور العلوم الطبيعية، الذي يصبح تطور الإنتاج مستحيلا بدونها، وهي من ناحية أخرى ترفض النتائج الفلسفية التي تتجاوز حدود النظريات العلمية الطبيعية والتي تقضي على فكرة خلود المجتمعات بما هي عليه بدون تغير.

لقد أسس المذهب الوضعي الفيلسوف الفرنسي أوغست كونت(1798-1857 )، (وسوف نتحدث عنه بالتفصيل في محاضرة لاحقة )، الذي أدخل مصطلح الوضعية في الفلسفة.

ومن الناحية التاريخية هناك ثلاث مراحل تطور المذهب الوضعي:

1-كان ممثلو المرحلة الأولى هم: أوغست كونت و ليتريه و لافيت(فرنسا )و جون ستيوارت ميل، وهربرت سبنسر(انكلترا ).

وإلى جانب مشكلات نظرية المعرفة(مشكلة القوانين التاريخية العامة لتطورها عند كونت )، (والمنطق عند ميل )-

والتي كانت تحل بروح التجريبية المتطرفة والنزعة الظواهرية-فإن المكانة الرئيسية في المرحلة الأولى من المذهب الوضعي كانت تخصص علم الاجتماع(انظر النظرية العضوية في المجتمع عند سبنسر )وكان موضوعه البرهنة على الطبيعة الطبيعية والابدية للمجتمع القائم.

2-ويرجع نشوء المرحلة الثانية من المذهب الوضعي إلى السبعينات حتى التسعينات من القرن التاسع عشر، وهي ترتبط بإسمي إرنست ماخ وريشار افيناريوس، اللذين نبذا حتى الاعتراف الصوري للموضوعات الواقعية موضوعيا، وهو

ما كان سمة المرحلة "الأولى"من المذهب الوضعي.

وقد فسرت مشكلات الإدراك في فلسفة"ماخ"من وجهة نظر النزعة السيكولوجية المتطرفة، ممزوجة بالنزعة الذاتية.

3-ويرتبط نشوء وتشكل المرحلة"الثالثة"من المذهب الوضعي بنشاط جماعة فيينا(او ما يسمى بحلقة فيينا الفلسفية )ومن الفلاسفة الوضعيين المنتمين لهذه الجماعة نذكر:أوتو نويرات و رودولف كارناب و شليك و فرانك وغيرهم، وجمعية برلين للفلسفة العلمية(رايشنباخ و كراوز وغيرهما )، التي كانت تضم عددا من التيارات:الذرية المنطقية والوضعية المنطقية السيمانطيقا العامة.(وترتبط بهذه التيارات ارتباطا وثيقا النزعة الإجرائية و الذرائعية"البرجماتية").

والمشكلة الرئيسية في المرحلة الثالثة تحتلها المشكلات الفلسفية للغة والمنطق الرمزي وبناء الأبحاث العلمية وغيرها.

وقد نبذ ممثلو المرحلة الثالثة النزعة السيكولوجية واتخذوا طريق التوفيق بين "منطق العلم" والرياضيات، وهو طريق إضفاء الطابع الصوري المتطرف على المشكلات المعرفية (الابستمولوجية ).

ومن ثم تطورت الفلسفة الوضعية لاحقا في الفلسفة المعاصرة فنشأ عنها ما يعرف باسم الوضعية الجديدة التي انقسمت إلى تيارين:الأول وهو ما يعرف باسم الوضعية المنطقية المرتبطة أساسا بحلقة فيينا وتطوراتها اللاحقة، والثاني هو ما يعرف باسم الفلسفة التحليلية وفلسفة اللغة، ويضم فلاسفة مشهورين أمثال:جورج ادوارد مور وفتجنشتين لاحقا وبرتراند راسل وغيرهم.

وسوف نفصل ذلك لاحقا في محاضرة مستقلة

وقبل أن ندخل بالتفاصيل حول الحديث عن الفلسفة الوضعية عموما، والمراحل الثلاث التي مرت بها في تطورها التاريخي، علينا أن نعطي فكرة ولو بسيطة عن المرحلة التمهيدية التي سبقت ظهور الفلسفة الوضعية ذاتها، وبالتالي لعبت دورا بارزا في ظهورها، لأن الفلسفة الوضعية لم تأتي هكذا ودفعة واحدة من فراغ، بل مهد لظهورها فلاسفة سابقين عليها، قد وضعوا حجر الأساس لبناء الفكر الوضعي عموما والفكر الظواهري خصوصآ، ومن أشهرهم:الفيلسوف الإنكليزي ديفيد هيوم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط.

--المرحلة التمهيدية ما قبل نشوء الفلسفة الوضعية والتي ساعدت على ظهورها لاحقا.

لقد تمثلت هذه المرحلة التمهيدية في فلسفة فيلسوفين محدثين ومشهورين على وجه الخصوص هما الفيلسوف الانكليزي ديفيد هيوم الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط.

## أولا: فلسفة "ديفيد هيوم".

يعتبر الفيلسوف الانكليزي المحدث ديفيد هيوم(1711-1776 )واحداً من أشهر فلاسفة النزعة التجريبية إلى جانب الفيلسوفين:"لوك و بيركلي"وكذلك فلسفة المثالية الذاتية ومذهب الشك(اللاأدرية )،وقد ساعدت أفكاره ذات الطابع الوضعي الظواهري(الفينومينولوجي )على نشوء الفلسفة الوضعية من جهة والفلسفة الظواهرية(الفينومينولوجيا )من جهة أخرى.

يعتبر ديفيد هيوم ان الواقع المعطى لنا بواسطة الحواس هو عبارة عن انطباعات أولية مباشرة في الوعي عن الظواهر الخارجية المنفردة كل على حدة والتي لا يمكن تجاوز فرادته الوضعية إلى ما هو عام ومشترك فيما بينها لأن هذا العام يتجاوز الظاهر إلى الباطن والجوهر وهو غير معطى في التجربة لذا لا يمكن قبوله باعتباره فكرة ميتافيزيقية فارغة من المعنى،بعبارة أخرى لا يمكن تجاوز الظواهر المفردة التي نعرفها بالحواس إلى مفاهيم عقلية عامة لبناء تراكيب عقلية بناء على ما هو مشترك بينها وإهمال الخواص الذاتية لها من أجل إنشاء المفاهيم والكليات لإقامة

العلوم كما فعل الفيلسوف التجريبي"لوك"،ولذلك تنتفي عند "هيوم"امكانية قيام علم حقيقي طالما أننا لا نستطيع تجاوز عالم الظواهر الذي تتميز فيه ظاهرة عن اخرى إلى عالم الجواهر وما هو عام ومشترك بينهما أي كلي:ونحن نعرف أن الوجود هو للجزئي ولكن لا علم إلا بالكلي الذي يصل إليه العقل انطلاقا من الجزئي ذاته.

وهذا يعني أن الواقع الموضوعي الخارجي عند هيوم ليس الا عبارة عن احساساتنا به، ومعرفتنا الذاتية له، ولسنا ندري هل هذه المعرفة حقيقية ام لا، وهل تعكس الواقع الخارجي الموضوعي كما هو بحد ذاته أم تقدم لنا مجرد تصوراتنا و انطباعاتنا الذاتية عنه وهي تختلف عن حقيقته التي لا نعرفها وكذلك تختلف من شخص لآخر.

وعليه، دعا هيوم إلى عدم تجاوز معطيات التجربة الحسية وعدم تجاوز وصف ظواهرها إلى مرحلة التفسير العلمي.

لذلك فالمعرفة عند"هيوم"لا تكمن في فهم الوجود بل في قدرتها على أن تكون دليلا للحياة العملية.

وعنده أن الموضوع الوحيد للمعرفة الأصلية هو الرياضيات.

فجميع موضوعات الدراسة الأخرى تتعلق بوقائع لا يمكن البرهنة عليها منطقيا، ولا يمكن استخلاصها من التجربة.

وجميع الآراء في الموجودات تنطلق هي الأخرى من التجربة،

التي فهمها هيوم اصلاً بشكل مثالي.

وبما ان جميع موضوعات الميتافيزيقا لا تنبع من التجربة بل متعالية عليها ومفارقة لها لذا اعتبر هيوم ان الميتافيزيقا زائفة وفارغة من المعنى ويجب إخراجها كلية من الفلسفة لأنه لا يمكن أن نبرهن على موضوعاتها تجريبيا.

والواقع عند هيوم ليس الا مجرى من الانطباعات "أسبابها مجهولة وغير قابلة للمعرفة".

وقد اعتبر مشكلة وجود أو عدم وجود العالم الموضوعي مشكلة مستعصية على الحل. إن واحدة من العلاقات الأساسية التي تقيمها التجربة هي علاقة العلة بالمعلول، ولا

يمكن استخلاصها بالحدس او بالتحليل او بالبرهان. فإذا سبقت ظاهرة ظاهرة أخرى فلا يمكن ان نستخلص ان الاولى علة والثانية معاول كما هو معمول به في نظرية السببية و الحتمية العلمية، وحتى أشد الأحداث تكرارا في الزمان لا تعطينا معرفة بقوة خفية بها يسبق الشيء الشيء الآخر.

وعلى أية حال فالناس قد اعتادوا أن يستمدوا من أداء شيء معطى في الماضي أداء مشابه للشيء نفسه في المستقبل.

وهم لا يقومون بمثل هذا الاستدلال إلا بقوة العادة.

ومن ثم أنكر هيوم الطبيعة الموضوعية للسببية، ففي رأيه أن مجرى انطباعاتنا ليس عماء مطلقا، فبعض الأشياء تبدو لنا ساطعة وحية وثابتة، وهذا كاف عمومآ للحياة العملية، والشيئ الوحيد والضروري هو ان نفهم ان مصدر اليقين ليس المعرفة النظرية بل الإيمان.

لقد وضع هيوم مفهوم "المعية" عوضا عن مفهوم "السببية" لأن الأحداث والظواهر تحصل مع بعضها البعض (معية )،

وليس قبل او بعد بعضها البعض بموجب العلاقة السببية،

لأنه بحكم التجربة والتكرار والعادة نظن انها تحصل بموجب العلاقة السببية بين "متقدم" في الزمن وهو العلة او السبب وبين"متأخر"في الزمن ولاحق وهو المعلول أو النتيجة،ولكن الحقيقة ليست كذلك،بموجب هذا الفهم ذاته وضع"هيوم"

مبادئ تداعي الأفكار وفق التجاور المكاني والتشابه أو التتابع الزماني ووفق الارتباط السببي بحكم العادة والظن وليس بحكم الواقع.

ثانيا: فلسفة "إيمانويل كانط".

يعتبر الفيلسوف الألماني المحدث" ايمانويل كانط"(1724-1804)من أشهر فلاسفة المثالية الذاتية ومؤسس ما يسمى بالمثالية الكلاسيكية الالمانية، إضافة إلى كونه مؤسس ما يدعى بالمثالية"النقدية"أو المتعالية(الترانسندنتالية )( Transcendental ).

لقد صاغ"كانط"في مرحلة تفكيره الفلسفي ما قبل(المرحلة النقدية )أي قبل عام 1770 فرضيته الكونية عن"السديم"والتي يذهب فيها إلى أن نظام الكواكب نشأ وتطور عن"غيمة سديمية".وفي الوقت نفسه الذي قدم كانط فرضيته عن وجود عالم اكبر(ماكروكوزم )من المجرات خارج مجرتنا،طور نظريات تقهقر دوران الأرض بفعل التمزق الجذري ونسبية الحركة والسكون.

وقد صمم كانط في أعماله الفلسفية في المرحلة ما قبل النقدية وتحت تأثير النزعة التجريبية والشكية عند هيوم الاختلاف بين الأسس الواقعية والأسس المنطقية، وأدخل إلى الفلسفة مفهوم الأجسام السالبة، وسخر من ولع معاصريه بالتصوف والنزعة الروحية والاستنباطية ومال لصالح التجربة.

لقد لعبت فلسفة هيوم دورا بارزا في عملية الانتقال اللاحقة لفلسفة كانط من المرحلة ما قبل النقدية إلى المرحلة النقدية التي صاغ فيها فلسفته"النقدية"التي أعطى فيها ما للتجربة للتجربة وما للعقل للعقل، واضعا الشروط والحدود والامكانيات التي لا يمكن للعقل ولا للتجربة ولا لعملية المعرفة تجاوزها أثناء محاولة معرفة الأشياء المعطاة للذهن في التجربة اعتمادا على الحواس ذاتها واعتمادا على العقل القبلي المتعالي الذي يعمل على تنظيم مادة المعرفة القادمة من التجربة بواسطة الأشكال القبلية والحدوس الفلسفية على مستوى الحساسية والفاهمة وبمساعدة الخيال الذي يستحضر الأفكار الفطرية من العقل وهي واحدة عند جميع الناس الذين لا يختلفون بمعرفتهم إلا بما هو قادم من التجربة،

فالتجربة عنده بلا عقل عمياء والعقل بلا تجربة فارغ من المضمون.

ان عملية الانتقال إلى المرحلة النقدية قد ساعد كانط على رفض الأفكار القطعية والنزعة الدوغمائية في الفلسفة(وقد قال في ذلك: "ان هيوم هو أول من ايقظني من سباتي الدوغماطيقي" ) وقادته إلى التقسيم الثنائي( Dualism)في المجال الابستمولوجي وفي المجال الانطولوجي، بحيث قسم المعرفة إلى نوعين:معرفة نظرية ومعرفة عملية، معرفة عقلية قبلية ترانسندنتالية متعالية تتعامل مع مفاهيم مطلقة مثل الزمان والمكان والسببية ومعرفة بعدية تجريبية تتعامل مع الظواهر(الفينومينا ) أو الأشياء من أجلنا وفي أذهاننا التي تصب في الوعي عبر الحواس، وهي الوحيدة القابلة للمعرفة.

وقسم الوجود على المستوى الأنطولوجي إلى نوعين:الأول هو عالم الظواهر التي يتعامل معها العقل الترانسندنتالي بواسطة التجربة، وهو عالم قابل للمعرفة، وعالم الأشياء في ذاتها كما توجد بحد ذاتها ولكنها ترانسندنتية اي متعالية على العقل وعلى التجربة في آن واحد وهي تشكل عالم النومين الغير قابل للمعرفة، ويمكن تسمية موضوعاته بالقضايا الفلسفية الكبرى مثل وجود الأشياء في ذاتها وفكرة النفس الخالدة وفكرة الله ومفهوم الحرية، وهذه الموضوعات لا يمكن أن يعرفها العقل النظري لذا يجب إحالتها إلى العقل العملي والقضايا الاخلاقية اي الميتافيزيقا والايمان.

وفي عام 1770 انتقل كانط إلى الفترة النقدية وظهر كتابه:"نقد العقل المحض"أو"نقد العقل النظري"عام 1781 واتبعه بكتابه"نقد العقل العملي"في عام 1788، ثم كتابه"نقد ملكة الحكم"عام 1790.وفي هذه الكتب يعرض كانط بطريقة متماسكة النظرية"النقدية"في المعرفة والأخلاق وعلم الجمال،

ونظرية ملائمة الطبيعة.

وقد برهن كانط في أعماله خلال الفترة النقدية على استحالة بناء مذهب في الفلسفة التأملية("ميتافيزيقا"باللغة الاصطلاحية لذلك الوقت )، دون دراسة تمهيدية لأشكال المعرفة وحدود وقدرات الإنسان المعرفية.

وقد أفضت دراستها "بكانط"إلى النزعة اللاأدرية وإلى التأكيد بأن طبيعة الأشياء كما توجد هي نفسها(أي الأشياء في ذاتها )غير متاحة من حيث المبدأ للمعرفة الإنسانية.

فالمعرفة ممكنة فقط"بالظواهر-الفينومينا Phenomena "،

أي الطريقة التي تتكشف بها الأشياء في خبرتنا.

والمعرفة النظرية الحقة متاحة في الرياضيات والعلم الطبيعي فحسب، وعلى الفلسفة أن تحذو حذوهما بامتلاك خاصية الضرورة والشمولية أو الكلية لكي تتحول إلى علم يكتسب صفة اليقين والركون إليه وذلك من خلال التركيز على الأحكام التي هي على نوعين: تحليلية إي استنتاجية عقلية ولا تأتي بأي شيئ جديد، وتركيبية أي استقرائية وتجريبية هي التي تعمل على تطوير العلم وتزويده بالمعلومات الجديدة، والغريب في الأمر هنا ان كانط قد وضع ضمن الأحكام التركيبية ما يسمى عنده بالأحكام التركيبية القبلية، التي لم يستخدمها من قبل أحد سوى كانط وهي تحتوي على خاصية القبلية(ما قبل التجربة )وخاصية البعدية(ما بعد التجربة )في آن واحد وتستخدمها العلوم الرياضية والطبيعية وهي تمتلك خاصية الشمولية والضرورة اللازمتين لقيام العلم.

وتحدد هذا عند كانط حقيقة أنه توجد في في عقل الانسان

أشكال قبلية(اولية )للتأمل الحسي، مثل الأشكال الأولية عن الرابطة ، او التركيب، بين تعدد الاشكال الحسية ومفاهيم العقل. وهذه-على سبيل المثال-هي أساس قانون ثبات الجواهر ، وقانون السببية، وقانون تفاعل الجواهر.

وعند كانط أنه كامن في العقل شوق لا يمكن قمعه نحو المعرفة المطلقة(أي الميتافيزيقا )ناشئ عن متطلبات أخلاقية عليا. وتحت ضغط هذا الشوق يسعى عقل الانسان إلى حل مشكلة نهائية أو لا نهائية العالم في الزمان والمكان، وامكانية وجود عناصر لا تنقسم في العالم، وطبيعة العمليات التي تتم في العالم، ومشكلة الله باعتباره موجودا جوهريا بصورة مطلقة. وقد أعتقد كانط أن الحلول المتعارضة قابلة للبرهنة عليها بدرجة متساوية: فالعالم متناه ولا متناه، والجزيئات التي لا تنقسم (الذرات )موجودة، ولا وجود لمثل هذه الجزيئات،

وكل العمليات مشروطة سببا، وهناك عمليات(افعال )تحدث حرة، ويوجد ولا يوجد موجود جوهري بصورة مطلقة.

وهكذا فإن العقل بطبيعته تناقضي، أي تقسمه التناقضات.

ولكن هذه التناقضات ظاهرة فحسب، و يتأسس حل هذا اللغز بالحد من المعرفة لصالح الإيمان، بالتفرقة بين"الأشياء في ذاتها"و"الظواهر"، والاعتراف بأن"الأشياء في ذاتها"غير ممكنة المعرفة. وهكذا فإن الإنسان-في آن واحد-ليس حرا(موجود في عالم من الظواهر )وحر(كذات في العالم المجاوز للحس وغير الممكن معرفته )، ووجود الله لا يمكن البرهنة عليه"للمعرفة"وفي الوقت نفسه هناك مصادرة الإيمان الضرورية، التي يرتكز عليها اعتقادنا بوجود الأمر الأخلاقي،

الخ.هذه النظرية في الطبيعة التناقضية للعقل-التي استخدمها كانط كأساس لثنائية "الأشياء في ذاتها"و "الظواهر"كأساس للاأدرية-أعطت دفعة لتطور الجدل الوضعي في المثالية الكلاسيكية الألمانية.

ومن ناحية اخرى، بقيت هذه النظرية-في فهمها للمعرفة والسلوك والجهد الإبداعي-أسيرة الثنائية واللاأدرية والصورية.

فقد أعلن كانط-مثلا-قانون اساسي-الأمر المطلق الذي يتطلب أن يهتدي الإنسان بقاعدة يمكن-بحكم كونها مستقلة استقلالا مطلقا عن المحتوى الأخلاقي للفعل، أن تصبح قاعدة كلية للسلوك.وفي علم الجمال رد كانط الجمال إلى متعة"نزيهة"لا تتوقف على ما إذا كان الشيء الموصوف في عمل فني موجودا أم لا، ويحدده الشكل وحده.ولكن كانط عجز عن تطبيق صوريته بطريقة متماسكة.ففي علم الأخلاق-

وعلى النقيض من الطبيعة الصورية للأمر المطلق-قدم مبدأ القيمة الذاتية لكل فرد، التي لا ينبغي أن يضحى بها لخير المجتمع ككل، وفي علم الجمال، -وعلى النقيض من الصورية في فهم الجميل-أعلن أن الشعر هو الشكل الاعلى للفن، لأنه قادر على أن يصور المثل الاعلى، الخ.

انتهت المحاضرة الأولى.